أجنحة منفية

أمل عبدالله الحرملية

الكتاب: أجنحة منفية

المؤلف: أمل عبدالله الحرملية

الطبعة الأولى 2019
جميع الحقوق محفوظة
لمؤسسة بيت الغشام للصحافة والنشر والإعلان

(سلطنة عُمان - مسقط)

مؤسسة بيت الغشام للصحافة والنشر والإعلان
Bait AL-Ghasham for Press publication and advertising
هاتف: ٢٤٥٩١٦٤٦ - ٩٩٢٦٠٣٨٦ ص.ب: ٢٠٦٨ الرمز البريدي: ١٣٣
Tel: 24591646 - 99260386 P.O.Box: 2068, P.Code : 133
alghshamoman@gmail.com
www.altakweenmag.com

رقم الإيداع: 537 / 2018
رقم الإيداع الدولي (ISBN)
978-99969-2-220-6

التصميم الداخلي والغلاف: أحلام الرحبي

الإهداء

إلى أمي التي دفعتني لأنتصر في أشد معاركي احتداما..

إلى أبي.. لروحك السلام والزلال والحور والنمارق..

لكل الذين لم يفلتوا يدي حين أراد العالم منهم ذلك..

إليّ حين قررت باكرا أن أغرس في كبد كل سماء نبتة ياسمين..

إليك أيها القارئ العزيز:

لن تجد هنا سوى نوبات هذيان مزمنة تترنح على استحياء!

- 1 -

أتسلق سور السماء لأن سطح أرضنا قد تهشّم..

أجنحتي منفية ولساني معتقلٌ بتهمة الكلام..

تسلقت أبحث عن قلمٍ تعجز حكومة الأرض عن مصادرته..

عن نيازك لا تتواطأ مع الجواسيس المتخفين في هيئة نجماتٍ وكواكب..

عن سدرة مُنتهى ثانية لعلي أقابل عندها الأنبياء..

لأشكو ما يفعله الأدعياء الذين يبيعون الآيات بثمن بخس..

يركلوننا في جُب يوسف باسم الصالحين الأتقياء..

وننفق عمرنا في انتظار قافلة العزيز ولا تأتي..

نهجو الجلادين فيُرفعون على رقابنا لنلعق أحذيتهم..

ثم تُسلَط على رقابنا المشانق..

ليس في أرضنا أيتها السماء هواء..

نحن نتنفس توابيتنا.. نضاجع توابيتنا..

وننتظر من الموت رصاصة الرحمة الأخيرة..

- 2 -

تريثي يا أحلامنا البيضاء..

يا انتفاضة الذكرى في أهداب الراحلين..

تريثي حتى يحبو عالمنا دون عكازه..

ويركن زهايمره الخاص في الكوة الوحيدة التي تعبر منها الشمس كل ظهيرة..

ليصاب نجمنا الأقرب بالعدوى ويضل طريقه في السماء..

لنبتدع أرضا جديدة..

لا تهرم فيها الوعود..

ولا تذبل فيها الورود..

تريثي لنلبس العالم معطفا جديدا حيك من غاباته وهضابه..

ونجوب المحيط بقاربٍ من ملح دموعنا..

لنستقر على جبل الجودي مجددا..

ويكتسي الأفق بالحمامات البيضاء ناثرة فوق رؤوسنا غصون الزيتون..

تريثي لأجلك.. لأجلنا.. لأجل أن تمنحينا نصرا أخيرا صغيرا..

- 3 -

زرعوا اختلافاتنا بيننا كطاعون..

وأطلقوها لتسيح في الأرض وتنشر الخراب..

اختلافاتنا هذه الأم التي ترضع البدايات..

ثم تفطمها وتسحقها غير بعيد في أطراف الصحراء..

في ساحة يتشاطر فيها الأموات القُبل الباردة والموائد..

لا نعلم كيف وصلنا هنا؟

كيف أصبحت ألواننا أثقل على جلودنا من دمائنا؟

كيف احتجزنا أرواحنا قسرا في صناديق تتدحرج لتنتهي في جهنم؟

كيف اختلقنا أضحوكة أفضلية شعب على آخر وقبيلة على أختها؟

كيف ردمنا إنسانيتنا في الطمي الرخيص حتى أنبتت نسخة شيطانية مقيتة؟

يا اختلافاتنا: ألواننا.. أعراقنا.. أنسابنا.. املئينا بالفضول لنكتشف بعضنا..

لنحب بعضنا أكثر..

لنراقب ولادة أمم جديدة..

اختلافاتها هي وقود حريتنا وصعودنا وتقاربنا!

- 4 -

يدعي البعض عفوية وتلقائية قد تكون من البشاعة بمكان بحيث لا تترك فسحة للآخر للإنصات ولا سببا للبقاء..

أعزاء: ما بين الصراحة والوقاحة كما بين السماء والأرض!

- 5 -

برغم الضجيج الذي أفتعله حين أكون في الجوار فأنا في حقيقة الأمر
ورغم ما أبدو عليه وحيدا أكثر من أي فضاء آخر بالكون!

- 6 -

أحب الغرباء.. التائهون مثلي.. الذين أصادفهم بالدهليز الضيق الوحيد الذي اعتدت قطعه.. فأرتطم بهم ونسقط جميعا ونضحك سويا وكأننا التقينا ألف مرة قبل اصطدامنا الأول الأخير هذا.. على ذات الرداء الأحمر أن تخشى ممن يلتصقون بها.. أما الغرباء فهُم دافئون!

- 7 -

يا مشاكلنا.. الله أكبر منك ومن كل شيء.. أكبر من همي وحزني.. أكبر من ضعفي ووهني.. فاصغري إن شئت أو امضي في طريقك لسنا آبهين بك!

- 8 -

قال: هذا الكون يمشي مقلوبا.. قلت: الكون قد يمشي على عكازين حين نختار ذلك.. ويصبح مشلول الحركة حين نشاء ذلك.. قد يبدو مكفهرا متجهما وقد يطل كفرحةٍ عظيمةٍ يتيمة..

الأمر كله رهن رؤيتنا نحن للأمور.. ونحن حتما لا نملك الحقيقة المطلقة.

- 9 -

نجمة سقطت من الأرض واستقرت في قعر السماء.. وحيدة باردة خائفة لكنها لا ترتجف أبدا.. تطبع قبلة أخيرة على جبين كل الموتى الصاعدين عبر برزخ السماء.. هذه أنا لكن بثوب أنثى أرضية.

- 10 -

الشجر الذي ينثني باتجاه الريح يصمد طويلا ويقوى عوده.. أحيانا مجابهة واقعك تتطلب ألا تقاوم فينكسر داخلك.. تأقلم.. كن لينا رطبا فالكثير من المرونة يمنحك المزيد من الصلابة..

- 11 -

في ودائع الله كل أمنية لم يلح صاحبها في طلبها.. في ودائعه حتى تضج السماوات برجاء طالبها.. حتى تصبح ترنيمة مألوفة في العالم العلوي كما السفلي.. في ودائعه أودع قلبي وكل ما أحببت وكل حلم ناضلت لأراه حيا يتنفسني كما أتنفسه..

- 12 -

نحاول الارتفاع في جوف فقاعة ضخمة تصعد بنا في السماء.. تتقيؤنا الفقاعة وتنثرنا في هذا الفضاء العظيم.. نسقط إلى الأعلى ويتلقفنا ثقب أسود جائع. يبتلعنا.. يبتلع مرارتنا الملطخة بالخطيئة... ثم يلفظنا إلى لا عودة.. لا شيء يستسيغنا نحن الكومة الغارقة في الوحل والتيه.. أمنا الأرض أعيدينا إليك.. أعيدي..

- 13 -

أحيانا لا أحفل بهذا العالم تماما كطفل أعمى يدفن رأسه في حجر التي قالوا إنها أمه لكنه لم يرها يوما.. يا قلبي الضال هذا العالم لا يحفل بك.. عد لحطامي أيها الظبي الشارد.. عد لمنفاك الوحيد!

- 14 -

لو أن للرياح قدمين.. لو أنها تسابقنا مرة إلى أقصى التل الذي لم يطمثه من قبل إنس ولا جان.. لو أنها تعترف لمرة أنها خاسرة في حضورنا والغيابات.. لو أنها تقر أننا أسرع من أن ننسى وأبطأ من أن نتذكر كل شيء.. لكنها ليست مثلنا.. هي منهمكة دوما بضخ الأوكسجين إلى رئاتكم.. أنتم الذين تطالبون عيسى بمائدة من السماء وتخلقون عجلا وتصرخون في وجه أنفسكم أن لا مساس! أيها السامريون قفوا لمرة فلهاثكم عبء ثقيل على رئة الحياة.

- 15 -

إنني أحاول ردم كل الحفر التي تتسرب منها ذكرياتي معك كمستعمرة نمل خرج منها النمل ليجمع مؤن شتاء لن يأتي.. إنني أحاول التوقف عن حبك وأشياء أخرى!

أيتها الحياة أحاول أن أحبك.. فأحبيني.. أحبيني أو اتركيني أضل طريقي في فيافي لا سبيل عودة منها إليك!

- 16 -

كتمثال مهجور أنا.. منصوبٍ على ركن قصي في شارع يعج بالعابرين الذين يقفون لالتقاط صور تذكارية ثم يتابعون طريقهم.. أينا يا صديقي التمثال يجب أن يأسف لحاله أكثر؟ أو على كلينا التظاهر أن المقعد المتاخم سيبقى مشغولا بالعدم إلى الأبد.. أنا فقط امتلأت بالحياة حد التجشؤ ولم يعد في فراغي أي فراغ للمزيد..

- 17 -

حين رأيتك للمرة الأخيرة سقطت من لساني نصف الحروف.. وتسرب نصفها الآخر من بين أصابعي.. وبقيت بلا لغة.. توارت كلها خلفي واتحدت ضدي في عناد سافر.. رافضة المثول أمام عينيك.. تاركةً إياي وحدي أواجه سطوة حضورك.. هل اعتقدت أنني سأخوض معركتي هذه دونها؟ مصيري متعلق بها وحدها.. وأنت حاولت عمدا إحراقها بلهيب رئتيك.. إنني راحلة مثلها أيمم وجهي شطر أي وجهة لا أرى فيها وجهك.. فأنا أمتلئ إعاقة حين تهرب مني حروفي.. فلترحل ولا تعد ها هنا أبدا!

- 18 -

عن مشرّد:

مسافة ضئيلة تفصلني عن الشتاء الآتي.. يأتي ويقبل معه إحساس أبي بالعجز عن منحنا الحياة الرغيدة التي كانت تبرق في عينيه وهو يتأبط ذراع عروسته منذ عشرة أعوام.. يأتي يجتر معه كل الآلام التي تنوء عن حملها أمي وهي تغسل ثيابنا بمياه متجمدة.. يأتي مذكرا إياي بأننا في جزء منسي من هذا العالم حيث يتم اغتصاب الحياة جهرا في وضح النهار.. ينددون ويشجبون ويغلقون قضيتنا بالشمع الأحمر ثم وراء ستار يواصلون اغتصابها بشهية عارمة واحدا تلو الآخر.. أتوسلك أيها الشتاء ألا تأت فنحن لا نملك من القوت ما يكفي لنستضيفك في بطوننا.. لا نملك من الكساء ما يكفي لنخبئ عن عينيك عوراتنا.. لا نملك من الأمل ما يكفي لنخبرك أننا بخير.. أرجوك لا تأت!

- 19 -

وددت لو أنني ريشة سقطت غفلة عن ظهر طائر واستقرت أخيرا على منكبيك!

- 20 -

عن لاجئة:

ولأنني نشأت في مخيم للاجئين أستهجن أحلام الفتيات التي أجدها ملقاة على الأرض في مجلة شهرية لشؤون المرأة كان العم سمير يهربها إلينا في مخيمنا دون علم أهالينا.. الكثير من حكايات الغرام وصور العرائس يتبخترن بالفساتين البيضاء باذخة الجمال في أجواء صاخبة وبين أكفهن باقات ورد هكذا يسمونها لكنني لم أحمل بيدي يوما وردة واحدة.. كل ما أحمله هو نعشي الأبيض وأحيانا كثيرة أخشى أن أتعثر ويسقط من بين يدي بينما نركض أنا وصويحباتي في المساحة الضيقة المتاحة لنا بالمخيم.. ينتظر أبي الصيف كما ينتظره الكثير من الآباء الموغلين في البؤس والشقاء حيث يأتي الأثرياء ويتجولون بيننا وكأننا بضاعة مزجاة في سوق نخاسة ثم يختارون من بيننا من تكون زوجته لليلة واحدة أو لشهر أو أدنى من دون ذلك أو أكثر مقابل حفنة من المال يذرونها في وجوه آبائنا.. أليس مقدرًا لي؟ أن أقع في الحب كسائر فتيات المجلة؟! قطع أبي حبل أفكاري بسكين فقره المدقع: استعدي صغيرتي فخارج المخيم غاب آخر تجهلين كل ملامحه!

- 21 -

عن مهاجر:

ما زلنا يا صديقي نبحث عن وطن لنملأ به قلوبنا المثقوبة.. نموت خوفا من الموت.. عالقين في عنق زجاجة حين نوشك على الخروج منها نتشبث بالهواء كي لا نرتطم بقاعها ارتطاما أخيرا.. أتخمنا بطون القوارب بنا حتى لفظتنا إلى منفى أبدي لا عودة منه.. عم نفتش يا صاحبي؟ عن وطن؟

أنا لا أعرف ما الوطن. فطمتني الحياة قبل أن ألقم ثدي وطني في فمي. إنني تائه أحاول بعث الخراب بداخلي باحثا عن لقمة لا ترفضني كما رفضني هذا العالم!

- 22 -

باقٍ هنا..

على سارية سفينة تعبث بها العاصفة..

إلى وجهة رمادية أمضي..

لكنني أدرك يقينا: أجمل الأشياء لم تأت بعد!

- 23 -

بعد رسالتك الأخيرة قررت السماء أن تبكي كثيرا وأشرقت الشمس متأخرة عن موعدها بساعات.. كان كل شيء حولي تبتلعه فسحة العدم.. فقدت نفسي إذ فقدتك لكنني أطمئنك أنني أقوى عن ذي قبل وألقيت آخر تعاويذك في بئر مطمورة.. بعدك لم تعد الألوان تتباهى بأسمائها فالأسود وحده أصبح لوني المفضل.. إنني راحلة عن هذه المدينة التي تقتات منا كي لا تموت.. فالسلام عليك وعليها أبدا!

- 24 -

حين تقرأ كتابا أنت تمتطي صهوة نجم شارد في السماء.. وتقفز على ذيل مذنب في طريقه للاصطدام بكوكب تائه في هذا الفراغ العظيم.. حين تقرأ أنت تعزف لحنا في عمق محيط معتم.. وتبني قصرا على ظهر غمامة رمادية.. تصغر في عينيك أشياء وتعظم أشياء لتحتل كلها حجمها الحقيقي.. أن تقرأ يعني أن تعرف نفسك!

- 25 -

أن أقف على الشرفات أرسم عينيك الثائرتين.. أن أسافر جسدا وتبقى الروح هائمة في ملكوتك وتنتزع مني لحظة التحام وشيكة.. أن تحوم حولي هذه الفتنة الحسناء ويغطي وجهي الضباب وأبقى لا أرى سواك برغم المسافات.. أن ينتفض جسدي للسعة برد مفاجئة وأتحسس قلبي فأجد رمادا ولهيبا وأنت.. أن تفتعل كل هذه الحرائق وتدعي أنك لا تمارس السحر علي! أنت أكبر كاذب عرفته البشرية ولكنني أعشق هذا الجزء الشريد منك!

- 26 -

بعض القلوب قضت معظم دهرها وحيدة في مغارة إلى حد أن خيط الشمس الشفيف الذي يتسلل عنوة من كوة المغارة يؤذيها ونسمة باردة مباغتة قد تخدشها.. وحتى تستعد لهجر مغارتها فهي بحاجة لقرار واحد حاسم يتطلب تضحية عظيمة.. حين تقفوا على عتبات مغارتها لا تستدرجوها للخروج بإلحاحكم ومبالغتكم في تنميق العالم الخارجي فهذا الصنف من القلوب لو تأذى لا يتعافى ندبه أبدا.. لندعو أن كل جرح جديد عساه يضل الطريق إليهم.. وكل جرح قديم فليبرأ!

- 27 -

أجرني يا الله من صمت يحبس وراءه ملايين الكلمات المكتومة والآهات المبحوحة والتي لا نملك تنفيسها.. أجرني من غربة النفس ومن الدوران في متاهة تعود بي دوما لنقطة البداية لأبحث عني ولا أجدني.. أجرني يا الله!

- 28 -

أبحث فيك عني ثم أتبعثر وأتطاير في الهواء لأعود بتلات وردة ذابلة نسيها أحدهم على كرسي انتظاره.. أعود قطرة مطر تهوي من السماء لترتطم بمنحدر شفتيك وتلقى حتفها في دمائك الباردة.. أو نسمة تعبر شرفتك منتصف الليل وتنصت لطرق قلبك على جدران العزلة الطويلة.. أو ربما ذرة تراب هائمة تستقر أخيرا في قاع فنجانك.. أو أعود "لا شيء" وهنا سأعلن أخيرا أنني حظيت بحريتي ففي صدرك استودعت كل الزنازين وأغريت حراسها بشجرة الخلد التي لا تبلى.. ثم راودت المحيط الهادي عن نفسه وأطعمته حتى الثمالة سائر مفاتيحك.. أنت الآن حرٌ كما أنا حرة مع فارقٍ ضئيلٍ لن تراه أبدا!

- 29 -

يبدو أن شوارعنا تعاهدت ألا تتقاطع وكل ساعات المدينة أعلنت إضرابها.. لا أستطيع أن أجدك في أي مكان.. إنني مثل فار من العدالة تاركا خلفه السنين العجاف.. فإذا بالسنين السمان قد قضت نحبها على يد سفاح.. وإذا بالمدينة غير التي عرف.. والوجوه غير التي ألف.. والحبيبة ذات الجديلتين الطويلتين ليست في بيت أبيها.. هل هناك سجنٌ أشد مرارة من هذا؟!

- 30 -

المرأة الوحيدة مشبوهة.. الرجل الوحيد قديس.. أرأيت يا صديقي؟ الناس لا يقيمون القسط ولا يكيلون بمكياله.. عليك أن تفرض عليهم أسلوب تعاملهم معك بصرف البصر عن تصنيفك كذكر أو أنثى.. فهي لم تُخلق لك جارية.. وأنت لم تُخلق لها سيدا!

- 31 -

أبي قوافل الراحلين لا تفتر تشد رحالها كل حين.. لكن رحيلك وحدك سكب فيَ كل يُتم هذا العالم. كم علي أن أنتظر لأمسك يديك مجددا؟ لأعدك أنني لن أفلتهما أبدا... لأخبرك أنني أحببتك أكثر من أي شيء آخر في هذه الحياة.

- 32 -

كم تردد: ليجبر الله قلبي ويسكن أنينه.. لكن ليفعل الله ذلك عليك أن تشرع نوافذك للنور والأطيار.. عليك أن تركل أنينك هذا وتدفعه بغضب بعيدا عنك.. هل تريد من الله أن يعطيك دون أن تحارب؟ دون أن تنفض عنك الرماد؟ الله يعني القوة لا الكسر والهوان!

- 33 -

أخبرني كيف نغادر الوكر الخانق الذي زرعنا أنفسنا بداخله وتوغلنا بجذورنا في صخوره الصلدة؟ أليس علينا أن نقتلع أنفسنا عنوة؟ فلنقاتل كل لحظة وإن عجزنا لكننا على أية حال نحاول.. نحاول!

- 34 -

صباح روحك وهي مطمئنة.. صباح عينيك أحبهما بالقدر الذي يخفيان خلفهما جنونك وتمردك.. وتلونهما المنافق حين أحاول تخمين أمر عنك.. ماكرتان مثلك وتتستر أنت خلفهما عاريًا من كل شيء سوى جيشك المدجج بأسلحتك الواهية.. جيش قوامه رجل واحد.. ولأنصفك فأنا لا أريد خوض حرب مع عينيك بل أريد للفارس خلفهما أن يترجل.. أخبره أن التي تنتظر عند الباب لا تخوض النهر إلا بعد أن تقيس ممانعتها لتدفقه الغزير.. إنها لا تطير مع غيمة حُبلى فالغيمة الحبلى تعجز عن قطع المسافات الطويلة وتتخلى عنك في أول الطريق.. الغيمة العطشى وحدها تثمن رفقتك وتجوب معك كل سماء دون تأفف.. إن كنت ممتلئا فلن تحب أي شيء فيَ.. عليك أن تفرغ كأسك.. أن توقف استكشافك للجزر العديدة البعيدة وإلا خسرت المحارة التي تصدر اللؤلؤ لأعناق السيدات الجميلات.. وبما أننا نتحدث عن الخسارات سأخبرك حقا ما خسرته.. لقد خسرت صورة قديمة مهزوزة لأمير على فرس بيضاء يجرفني بفيضان حبه دون أن أخبره كم أنا ظمأى.. وأنا سعيدة لأنني أدركت حجم الوهم الكرتوني الذي عشته.. فلتبطئ وتيرة انجرافك خلف كل جزيرة تلوح من بعيد.. لأنك تستنزف جُلّ مخزونك العاطفي.. ولا بد أنك لا تريد له النضوب!

- 35 -

قم وارتديني إن شئت.. امش بي إلى أطراف الدنيا القاصية.. لكن إياك أن تهجرني بحجة أنه لم يعد لي متسع في قلبك.. في رمشك.. في شاماتك المتلألئة الصغيرة!

- 36 -

وإذ يرفع الله عني الغطاء فيصبح بصري حديدا أخشى أن أنظر للوراء.. إلى شريط حياتي يتهاوى في سرعة مجنونة.. فلا أجد سوى حفنة أمل قد غرسته ثم لم أمنحه كفايته من الحياة لينمو!

- 37 -

في رحلتك عبر الجو على ارتفاع مئات الكيلومترات تتساءل: ماذا لو أن هذا الفضاء لا يظل تحت ظله سوى المزيد من الكذبة والمرجفين؟ تتمنى أن الرحلة تطول فلا شيء في الأسفل يستحق العودة.. ثم تتذكر أما بقلب يستوعب كل الفراغ الذي بداخلك.. وكتابا لم تنه قراءته وتركت نهاياته هاربة.. ونبتة ضعيفة تستلقي أسفل جدار بيتك يعصف بها البرد وما من يعتني بارتعاشتها البكماء.. وأحلاما على رف الانتظار لم تنفخ عنها الغبار بعد!

تدرك بعدها أن هنالك الكثير مما يستحق العودة لأجله!

- 38 -

من الغرابة أن يُتيم بك من لا تكترث لأمره وتنجرف حبا في ذات من لا يستشعر تجاهك سوى "اللا شيء" أو أكثر بقليل! نعم هنالك منطقة وسطى لكننا لا نحاول الوصول إليها.. كل ما تفعله هو السباحة في بحيرات دمي والتوقف طويلا عند ردهات قلبي ساحبا كل الهواء من غرفاته تاركا إياي بلونٍ أزرق شاحب أبحث عنك في فنجان قهوة باردة.. سأتبخر وأتركك تعيد وحدك صياغة العالم! بحوزة غرورك وحده كل المفاتيح والأحاجي والأساطير!

- 39 -

ناقصٌ مسائي بدونك مثل ليلة بدر أضلت طريقها في حلكة السماء.. مثل نجمات بنات نعش يتعثرن بأثوابهن الطويلة ويسقط نعش أبيهن ويتبعثر رماده في الفراغ العظيم.. مثل كل حكاية هربت منها نهايتها وبقيت بلا تتمة.

- 40 -

صباح الخير أيها المحزون.. من تستيقظ لتجد نفسك محاصرا في قلب قوقعة حزن هائل لم يبعثها من مرقدها موت قريب ولا هجر حبيب..

لا تعرف كيف هبط الحزن على عشك وأنت الذي كنت تنعت تفاصيل حياتك بـ "الطبيعية"..

لكنك..

تشعر بالعجز لكون كل حلم قد تحقق لم يكن بالجودة التي كنت لها تعد.. وتنظر بلؤم لتلك الأحلام المتصدرة عناوين الأفق البعيد دون نظرة رأفة لإلحاحك الطويل واستغاثتك المتكررة..

آلاف من مشاعر الغضب والاستهجان كتمتها وأغلقت عليها بمفاتيح صدئة في زنازينك الداخلية حتى لا تفقد بإطلاق سراحها من حولك.. هؤلاء الذين تحبهم وتستظل بعواصفهم وتحتمل لأجل لحظة صفاء معهم هزيم رعودهم..

أنت الذي أتلفت جهازك النفسي بمحاولاتك المستميتة لحل مشاكل غيرك وكأنك عصا موسى متناسيا أن عصا موسى لا تفعل السحر إلا بيد موسى وحده!

تمضي نهارك والمساءات قاطعا الطرق نفسها.. السكة ذاتها التي تستنسخ معها يوميا ما لا يحصى من الجداريات الرتيبة والوجوه الذابلة على قارعة الطريق..

حين تقدم على أمر تستحضر القدر والحظ والنصيب وكل الوسائل الكبرى لتتحول إلى إنسان آخر بينما أنت داخلك تمثال حجري متهشم سقطت منه ذراعه اليمنى يحدق فيها بوجع ثقيل مستجديا بدموعه أعطاف المارة ليعيدوها إليه فلا يستطيعون له سمعا.. ثم تلعن كل شيء وقف ضد تحولاتك ومشاريعك العظمى هذه!

حين تكون لوحدك تباعد بين شفتيك وتقصي بهما أطرافا من خدك محاولا اصطناع ذات القهقهة التي شاركتها أصدقاءك قبل قليل.. ولا تفلح لأنك لم تعتد على إضحاك نفسك!

صباح الخير أيها المحزون الذي سمح لكل هذا الركام أن يصبح جبلا ثقيلا يجثم على صدره ولم يقرر حتى اللحظة أن يزور داخله ويتعرف على السجين هناك ويقضي معه الأحاديث السعيدة! هل عرفت كيف يزورك هذا الحزن دون أن تكون قد قدمت دعوة لا لغداء ولا عشاء لضيفك الثقيل هذا؟!

- 41 -

قالها ويليام جيمس: "إن الله يغفر أخطاءنا لكن جهازنا العصبي لا يفعل ذلك" .

إن أعظم أخطائنا في حق أنفسنا تأتي من الاستسلام حين يبدو الطريق مسدودا أمامنا بسبب تعاظم مخاوفنا.. العديد من الأمور التي تخيفنا أو يخيفنا تجربتها مثل المرض وفقد قريب وانهيار المكانة الاجتماعية والموت والمزيد كل يوم من الوجع الناجم عقب تجارب لم يكن النجاح حليفها.. حيث نبقى في دوامتها تأكلنا حتى نصل للحظة الوقوف على الحد الفاصل بين الحياة والموت وندرك أنه قد فاتتنا حيواتنا.. حيواتنا التي لم نعشها قط!

- 42 -

حين بحث كتّاب التراجم الشهيرة في حياة عظماء العلماء والمخترعين والمشاهير وتحديدا في نقطة التحول التي انعطفت بحياتهم إلى مسار جديد تماما وغير مُتنبأ به وقفزت بهم نحو المجد وجدوا أن ما غيّر حياتهم هو الفشل الذريع والضربات القاضية التي لكمتهم بها الحياة وإحساسهم العارم باليأس والعجز والإحباط.. يجمع كُتّاب هذه السير الذاتية لهؤلاء العظماء أنه لولا خيبتهم لرفض العالم لإنتاجهم العلمي والأدبي وفقرهم والأزمات العاطفية بأوجهها المختلفة والإعاقات بأشكالها لما وصل هؤلاء بروائعهم وأعمالهم إلى قائمة الذين سيخلدهم تاريخ البشرية إلى أن يرث الأرض ومن عليها!

- 43 -

كالهواء يحتاجوننا لكن لا يروننا.. لا ينتبهون لوجودنا إلا حين نلوح بأكفنا تلويحة الوداع الأخيرة.. وحينها لا نلتفت.. لا نعود.. فقد استنزفونا بما فيه الكفاية!

- 44 -

هناك فلسفة إغريقية تقول: إن كل شيء يمكن أن يتغير عدا قانون التغير نفسه!

الكون يواصل تمدده كما الأفلاك تستمر في تقلبها بين السدم والمجرات.. الأنهار لا توقف جريانها للحظة بدعوى التقاط الأنفاس.. لا شيء حولنا آسن وراكد.. ولكن بيننا من تجده يدعو "رب لا تغير علينا".. الذين يقاومون التغيير ويتوجسون خيفة من كل بادرة له تلوح في الأفق يختلفون في قرارة أنفسهم مع واحد من أهم السنن الطبيعية لهذا الكون.. علينا أن نربي أنفسنا أن تطلعنا لنصيبنا من النجاح والسعادة في هذه الحياة لا يتعارض وتبدلها المستمر تماما كتبدل فصولها ومناخاتها الذي يحمي هذا الكوكب من الذبول والعفن والآفات.. أن نستطيع الاستفادة من كل فرصة غير متوقعة وموقف غير مخطط له.. أن نضع بالحسبان أن كل كذلك يرفدنا بالخبرة والقوة اللازمتين لتخطي هذه الحياة باقتدار وجعلها دوما ذا معنى وأثر.

- 45 -

إلى الذي لا يجد طريقة لنسيان الكلمات اللاذعة التي أصابته سهامها ذات يوم في مقتل ثم انسلت.. السائر دون هدى متأبطا جريدة صفراء يعود تاريخها لخمسة أعوام وتحمل أكثر من غيرها خيباته وجملة هزائمه.. إلى الذي لا ترعبه فكرة السقوط لأنه قد وصل حقا للقاع.. إلى الذي يطبق العالم قبضته على عنقه.. الخارج على قانون نفسه.. الثائر الذي تتلاطم أمواجه طوال العام.. الناقم على كل علاقة عبثية خاضها.. المشمئز من عثراته وجناياته.. العاجز عن احتساء فنجان قهوة دون أن يصاحب ذلك احتشاد جيوش من الهذيان والمعارك المفتعلة داخل جمجمته الهشة.. أتوسلك أن تحاول ترميمك.. أن ترفض دور الميت الحي.. أن تعيد بناء كل طوبة تهشمت من جدران روحك.. أخبرك ذلك لأنك لست وحدك.. كلنا يا صديقي مثلك.. كلنا متشابهون!

- 46 -

حين تعرض يوليوس قيصر للطعن غدرا من رجاله بقي مترنحا مكانه وما سقط أرضًا إلا حين غرز بروتوس خنجره في ظهر صديقه الذي رباه في القصر مثل ابن له وقال قيصر لحظتها مقولته الشهيرة: حتى أنت يا بروتوس؟! إذًا فليمت قيصر!

بروتوس أيها الأصدقاء قد يكون شخصا تألفونه وتحبونه.. قد يكون حلما تكافحون بشراسة لأجل تحقيقه.. قد يكون أمنية تلحون طرق الأبواب والقلوب لنيلها.. بروتوس قد يكون أي شيء حتى نفسك!

إنك لا يمكن أن تتكهن من أين يمكن للأذى أن يتسلل إلى حياتك.. لذلك جُل اليُمن والسلام تجده في اليقين المطلق بقوة الدعاء لله في دفع الشر عنك وجلب كل الهناء الذي تستحق.

- 47 -

إن غاب حبيب كن سليمانا حين تفقد الطير ولم يجد هدهده فلم يتكهن بأسباب غيابه بل انتظره حتى عاد ليتبين حجته..

إن حاصرك اليأس كن يعقوبا حين وجد ريح يوسف بينما كان ظاهر الأمر لقومه أن يوسف مات منذ أمد بعيد..

إن واجهت قدرا يزلزل كيانك كن مريم حين دعت ربها ليتني كنت نسيا منسيا وكان الرد الإلهي: كلي واشربي وقري عينا..

إن مشيت في غير الدرب الذي سلكه الآخرون لأن قضيتك عظيمة تستعصي عليهم كن إبراهيم الذي لم يحب الآفلين فوجد الله بعد بحثه الجهيد..

إن تآمر عليك أقرب المقربين كن يوسفا حين أعلنها لإخوته: "لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم" مع أنه كان في رفعة يستطيع معها قطع رقابهم بعد أن أذاقوه لوقتٍ طويل ويل فراق عائلته ومرارة الاستعباد وقسوة السجن والاتهام في عِرضه..

- 48 -

نشبه ساعة الرمل يا رفيقي.. تلك التي توقف رملها عن الانزلاق عبر عنقها منذ أمدٍ بعيد.. كل شيء حولها يواصل تدحرجه وجريانه.. لا أحد يأبه لساعة رملية عاجزة عن مشاركة العالم زحفه نحو نهايته.. برغم ذلك هي شديدة الثقة أن طفل أحدهم سيعبر ويراها.. سيقلبها وتعود رمالها لحساب التاريخ.. ستعود وإن أصبحت جزءًا من ماضٍ عتيق.. فمن قال إننا نكره ماضينا وهو الذي يتلبسنا ويصرعنا رغم أنوفنا طوال الوقت؟

- 49 -

برغم البراءة التي ترتديها قناعا لتغوي به نفسك وتراود به السائرين عن أنفسهم وتشعل أصابعك قناديلَ في سبيل استجلاء آثامهم وفضائلهم ثم التفرس في وجوههم بغية تصنيفهم وفق هواك إلى مستحق للفردوس وآخر لجهنم.. في خضم هذا كله أنت لا ترى الوحش الكاسر الذي تطعمه بداخلك.. إنه يقتات منك ويطبع على وجهك صورة أخرى لا تشبهك.. شيئا فشيئا لا تتعرف عليك وينكرك من حولك! حاول ألا تراهم شياطين في كوكب يضج بالملائكة! حاول أن ترى كم أنت بشريٌ مثلهم.. وأنك لست إلههم!

- 50 -

أشد أجزاء الحياة إثارة للشجن أن يضع أحدنا نفسه رهن الإقامة الجبرية ويطلق سراح أجنحته المتكسرة إطلاقا مشروطا فيدور مع كل زوبعة وتتعاقب عليه فصول الصراع بين اليأس والرغبة والألم والفراغ.. ليس خطأً أن نعيش حياة لا ترضينا ولا تحقق أدنى معاييرنا التي تحسسنا معالمها في مخيلاتنا في فترات باكرة من حياتنا.. لكن الخطأ كله في الاستسلام والكف عن المحاولة.. إننا جُبلنا يا صديقي على التصفيق والتهليل للشجعان أكثر من المنتصرين.. ألا ترى أننا في المواجهات لا نعتبر الفائز الحقيقي هو المنتصر حين يكون خصمه مستميتا في الدفاع عن حلمه وجاعلا من النصر مهمة شبه مستحيلة للفائز؟ مثلهم هؤلاء الذين يحاصرون مشاكلهم قبل أن تحاصرهم.. ويتغدون بالإحباط المتسلل إلى أرواحهم قبل أن يتعشى بهم.. ارتفع فوق ألمك وقم بتوطين نفسك على التوقف عن اجترار الأليم من ذكرياتك.. نحن اليوم يا صديقي لا نشبه نسختنا بالأمس.. تتم ولادتنا آلاف المرات وفي معظمها ولادات متعسرة.. لكن انظر ها نحن.. بخير ونتعافى.. فلنزح عن ضمائرنا جبالنا الثقيلة!

- 51 -

هنالك أرواح ملوثة أكثر من غيرها.. الاقتراب منها يشبه تماما الإمساك بفحمة حيث تلطخ يديك وإن حاولت تنظيفهما فستلطخ كل شيء آخر تلمسه.. هؤلاء الذين يدسون السم مع كلماتهم الشهية ويتأبطون شرا بنا وكأننا انتزعنا من بين أضراسهم آخر لقمة عيش.. فليعبروا غير مرئيين ولنفسح المجال لتنقية أرواحنا مما علق بها من شوائبهم!

- 52 -

السلام عليك وأنت على الأسِرة البيضاء تبتلعين صرخات الألم وتحتملين آلاف الغصص جرَاء العمليات ولا يرتفع منك إلى السماوات سواها: رب.. رب لا تذرني فردا!

السلام عليك وأنت الصابرة الحامدة الرافعة أكف الدعوات بعد كل محاولة غير موفقة طبيا للإخصاب!

السلام عليك وأنت في كل يوم تصلك رسالة جديدة بشرى من صديقة أو قريبة زُفَ إليها مولودها في طقوس تحلم بها كل امرأةَ!

السلام عليك وأنت تعانقين أطفالهن وتدعين لهم بقلبٍ يتوق لهكذا عناق مع طفل ينبلج سناه من جوف رحمك!

السلام عليك وأنت تتجرعين مرارة تلميحاتهن وأذاهن وهزلهن وجدهن بمقارنتك بكل نساء العالم اللواتي يحبلن وكأنك اخترت أن توصمي بالعقيمة!

السلام عليك وأنت تتأملين زوجك وهو يلاطف أطفال الآخرين ويتصاعد خفق قلبك: لو أنني أستطيع أن أهديك هذه الفرحة!

السلام عليك وأنت تعبرين المطارات وتطرقين أبواب العيادات وتقضين الساعات الطوال باحثة عن عنوان طبيب أو شيخ يمكنه إنقاذ أمنيتك الأعظم من الذبول!

السلام عليك وأنت تبكين.. وتنكسرين.. ويأكلك شعور أنك امرأة ناقصة لأن المجتمع حولك يراك هكذا!

السلام عليك مكلومة مترقبة فزعة وأنت تعلمين أن مصيرك قد ينتهي مع ضُرة تناصفك حبك ولكنك تصمتين لأنك تعلمين أنه رجل شرقي لا يحتمل إنفاق عمره دون أن يرثه من يحمل اسمه!

السلام عليك سرمدا وأنت تقرئين "مريم" وأخواتها وتمجدين الله في ذهول لأن نبينا زكريا برغم هرمه وزوجه العقيم أنجبا وهما في أرذل العمر!

السلام عليك وأنت تستبشرين لصيحة سارة زوجة سيدنا "إبراهيم" حين بشَر الملائكة زوجها بغلام فصكت وجهها وقالت: "عجوز عقيم"!

السلام عليك وأنت تغفين وتستيقظين على يقين مطلق بأن الأرزاق قد تتأخر لكنها لا تضل طريقها إلينا أبدا!

السلام عليك يوم وُلدتِ ويوم تلدين.. وما ذلك على الله بعزيز!

- 53 -

المساء ذلك الموج الذي يعريني من مجاديفي،
فأبقى أمامه أتمتم بولعي في الوحدة،
وأما الوحدة فهي ذلك الصديق الذي يعرف من أنا،
ثم يصر على جهله بي!
البارحة وبعد أن ضاق بي الفضاء
زارني طيفك الذي أجهله!
تائهٌ أنا..
ووجعي شتات خريف..
حاولت لملمته ولم أفلح.
قاس جدا حين يبدو أمامك السديم ممتدا..
وأنت وحيد!!

أقسى من ذلك كله،

أن يدنس سكوني هذا الهتك المتعمد لمشاعري

من قبل الجمادات،

وأنا التي شرحت لها آلاف المرات:

أنني مثلها لست حيا!

- 54 -

أخبره..

من أبوه من أمه؟

أو فانسلخ من جلد جنسه..

هذا الذي بالعار قد رموه..

والعار كل العار..

جاء خلسة..

في شفتين ترتجفان..

ونزوة جامحة..

وهمسة..

أخبره بأي ذنب..

رموه؟

أي جرم مسه؟

لو ساعة..

قد صبروا..

لو بالحلال..

أمسى..

- 55 -

سقط قرط أذنها اليمنى..

في ليلة ماطرة..

عادت إليه ترتجف..

سألها: أين كنت؟

أيتها الزنبقة العاطرة..

أنفاسها..

سيجار.. وورق..

قلبها يحترق..

فقدت للتو..

أطهر إحساس..

أضاعته..

فوق سكة القاطرة..

- 56 -

ماذا يكون هذا المساء لو أننا شربناه؟

ماذا يلحق بالنجوم لو أننا بقاماتنا الطويلة القصيرة بصقناها حنظلا وشوكًا؟

وما الذي خسرناه للتو حين زرعنا في الحناجر محبة؟

ونظراتنا تتدفق كجروح السنين..

كشلال مشلول ما عاد يغري..

نبكي للرياح المتبعثرة وهي بعيدا جدا تنشر عفننا فوق السطوح..

برزخ من عتمة يفصلنا..

لو أنني أعلم ماذا يحدث للمساء لو أننا شربناه؟!

- 57 -

عيون النساء حولي.

عقرب يلدغ شمس..

وكلب ينبح غمامة..

عيونهن..

سفن غارقة..

وأخرى نافقة..

على الشواطئ..

عيونهن..

مصابيح عتبات القبور..

وخيوط من نسج عنكبوت..

لآلئ صغيرة..

بالغة المكر..

موغلة في السواد..

وجزيرة من حلم..

يجهض قبل الولادة..

براية الحِداد..

عيونهن..

مدعاة للقلق..

نعوذ منها برب الفلق..

- 58 -

كيف أطرق باب غرفته..

وأدرك أن غرفته بلا باب؟

وأنه منذ عقدين أحدث في سقفه ثغرة..

يحسبني سأهطل من سمائه مطرا..

أو سأسقط من مجرته شِعرى..

يحدق في الفضاء يستجدي ضالته..

شهابا.. نيزكا.. أو حتى طيرا...

كيف أطرق باب غرفته..

ويعهدني ندى يتوسل الأكمام طهرا؟

يزور ألف محراب ويدعو الله..

أن يحيا ليلثم من جبين الحب عطرا..

ويزعم أنني في كل ليلٍ أزوره..

أنني في ساقية الماء.. في العش..

في أوردته الباردة سكنت دهرا..

كيف أطرق بابه المخلوع..

وجداره المبني من كومة قش..

كيف أخبره أنني أكثر منه نفدت صبرا؟

- 59 -

جئت بحثا عن مدى يشبه مداك..

عن علو شاهق يرجو من الدنيا سناك..

عن ثريا عن زمرد عن عطارد عن سِماك..

جئت من كبد المدائن كلها..

تلك المهولة بالضباب وبالندامة والشتات..

من مرج هارون الرشيد وسرج فارسه العتيد..

من ليلة عربية تهوى السبات..

جئت أرجو رجلا لا يقبر الأحلام في فناجين الغانيات..

لا يستفز المارد المحتل في صدري بحزمة أغنيات..

يعرف متى أصحو.. متى أدنو.. يعرف دون التفات متى أعبر جسر السماوات..

يلتقط سقطتي حين ترجف الأرض تحت قدمي بالهزات..

يعلمني أن أسكب الدمعات عطرا..

أن أنحني لكن في ثبات..

رجلٌ لا يسأم من أحاديثي عن الأشياء..

كل الأشياء.. ينصت بلذة وأناة..

في حياتي يا صديق لم أعرف رجلا واحدا..

كيف أسمي رجلا وطنا للأمنيات؟!

أيها المسافر كنجمة لا تشبه أي نجمات..

كل النجوم عن سمائي آفلات آفلات..

- 60 -

نحن جزءٌ من كل ما نصادفه ويصادفنا حتى الأماكن مُعدية بطريقة ما. فحينما يغادر إنسانٌ مكانه يترك جزءًا منه بطريقة أو بأخرى، وقد يعلق ذلك الجزء بعابرين آخرين. بعض الأماكن تأسرك أكثر من غيرها، وبعضها حالما تطؤها ينفرك منه.. تتوجع.. وتدفعك للهرب دون تبرير مقنع واحد. وبينما تراقب نفسك وأنت تكبر يخلد بعض تلك الأماكن في نخاعك، ولا يبرح ذهنك حتى في أحلامك. هذه الأمكنة وكأي مظهر آخر من مظاهر حضارة الإنسان هي ليست آسنة، بل تتبدل وتتقلب، وشيئا فشيئا ينسلخ مكان لقائنا الأول من زحام ذاكرتي وإن لم يندثر تماما، لكنه بات يعيد ترتيب نفسه في زاوية ما بعيدة في حكايات شهرزاد في ألف ليلة وليلة.

- 61 -

تجد آية "وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خيرٌ لكم" تربتها الخصبة في نفوسنا أكثر من "وعسى أن تحبوا شيئا وهو شرٌ لكم"؛ لأننا نحب تسلية أنفسنا دوما ومؤانستها حين يعترضها ما تكره بينما نتمسك بالأشياء المحببة لدينا ونتجاهل كم يمكنها أن تؤذينا.. نعم نحن كائنات واهمة حالمة.. الأمل وحده وقودنا لذا نبقيه دوما في أعلى مناسيبه!

- 62 -

لا توقدوا النار تحت المراجل انتظارا لفرحٍ لم يصل بعد.. ولا تسخنوا أعصابكم لحربٍ لم يئن أوانها.. دعوا حياتكم تجري على أعنتها وعيشوا هانئي البال.

- 63 -

نعم هو حزينٌ من لا يرى الآخرون دموعه لكن التعيس حقا من يستشعر دموعه وعويله لكن حين يتفقد عينيه لا يجد أثرا للماء المنسكب منها!

- 64 -

الذي هبط على صحراء قلبي حاملاً على ظهره ألف غيمٍ وألف ميعاد هو ذاته الذي أشعل الحرائق فيه وأنقض ظهري وعرف من أين تؤكل كتفي فكسّر أضلاعي وحرّر من قفصي الصدري مئات الغربان والبوم.. أعود مقفرًا وتجدب في عينيّ كل الأمنيات التي بذرتها في الصقيع والقيظ.. هذا الهشيم وحده باقٍ أتبعه كظله!

- 65 -

تسللت إلى رأسي حين غفلة مني ممتطيا صهوة فكرة عبثية مشردة.. تجولت كثيرا في الدهاليز والسراديب الضيقة في عقلي واكتشفت أنك لن تجد أفضل من هكذا مكانًا لتمضي فيه بقية عمرك.. لكن قناعاتي ترفض تطفلك هذا وتلفظك بعيدا.. لا تتسول الحب ولا تشحذ الاهتمام.. أوقف هوسك هذا.. الناس قد خُلقوا أحرارا فلا تقم بتجزئة وإقصاء حرياتهم كما تشتهي!

- 66 -

ستسكب السماء ماءها وتحبل الأرض.. ستولد أرض جديدة.. وسنتقع أقدامنا في الوحل الطاهر.. ستمنع النحلات الرصاصات من أن تدل طريقها إلى صدورنا.. سنغني مع فراشات الليل ونرقص مع العنادل.. سنعيش مجددا إنسانيتنا التي سلبها الساسة وتجار الحروب.. ستتشابك أصابعنا مجددا برغم قبضاتنا المتعطشة للانتقام الواهم.. وسنتذكر أننا كلنا نعود بدايةً إلى رحم أمنا حواء.. لن نختار صف قابيل ولا هابيل.. سنقف بينهما ونخبرهما أن الجنة التي في صدورنا ليست للمساومة.. لا أحد يمكنه بكل غطرسته أن يكسر مجاديفنا.. أن يسلبنا أملنا.. أملنا كسرة الخبز الأخيرة التي نتقاسمها كلنا لنعيش!

- 67 -

أغار؟ نعم أغار ممن يلمسون السماء بأرواحهم.. يتهجدون في محرابهم بجانب صف طويل من الملائكة والنوارس والياسمينات.. يبعثون رسائل الحب لكل العناوين المجهولة.. يوقفون قفزة أحدهم الأخيرة.. يمطرون السنين العجاف وينعشون السنابل.. يعيدون خلق مئات الحكايات المنسية.. أغار من هؤلاء الذين يمنحون الحياة لأي شيء يلمسونه.. لأي درب يقطعونها.. لأي روح تائهة يقابلونها عرضا في الطريق الوعر الطويل..

أغار من هؤلاء فقط!

- 68 -

صرخنا في وجه السنين الخصبة: هيت لك..

فأزبدت وأرعدت في وجوهنا: معاذ الله!

لكننا برغم هذا:

لن نبرح الأرض حتى نبلغ الفرقدين!

- 69 -

بينما نتجادل وعقلي.. يصفق لي قلبي على استحياء ووجل وهو محشور في زاوية بعيدة خوفا من أن ينهره عقلي حين يختليان.. قبلة لقلبي وقبلتان ونصف لعقلي ولن أعدل بينهما ليستمرا في مقاضاتي.. وسيخسران دائما.. فأنا أستمتع بمشاهدتهما يتعاركان حتى التثاؤب الأخير..

- 70 -

أنا الآن حرفيا مشرد يفترش الطرقات التي لا يعبرها أحد.. في مدينة لا يُعرف الطريق إليها.. لا أرجو البعث لأشيائي التي ماتت.. والتي لن يأتي أحد للسير في جنازتها.. الأشياء بداخلنا تموت.. تموت على جرعات.. فلنبتعد قبل التعلق بقشة تطير في هواء مستعجل.. لنبتعد قبل النكبة الكبرى.. قبل القصيدة الأخيرة.. قبل مأتمنا الهزيل..

- 71 -

في قلب الغروب لوحة لجدة تحكي لأحفادها كل يوم أن ضوء النهار سيولد ومعه ستتحرر كل أوهام المتعجلين للقفز من السفينة المنكوبة قبل أن تغرق كليا.. الشاردة أعينهم من شدة الوجل.. الخاسرين حقا الذين يقفون هنا ولكن شطري أرواحهم يقطع أرض النبوءات نحو ماض لم يعد يتنفس ومستقبل لم يُنجب بعد!

- 72 -

كنت أسير لوحدي إلى أن التفت خلفي ذات مرة فرأيت آلاف الناس يجرون مثلي حطام أحلامهم نحو المجهول.. ثقبت يومها في جدار الشمس ثغرة ليتسلل عبرها الضياء إليهم واستيقظت ذات فجر لأجد شعاع نور عالق بين أصابعي.. أدركت حينها أن للأمل عدوى كما الحب.. كما الحنين.. كما كل الأشياء الصغيرة التي لا تُرى سوى في العتمة.

- 73 -

قارئة الكف ليس في كفي طريق..

ليس في تعرجاته خارطة لمدينة أفلاطون..

لن تري سواي أنثر الحبّ للطيور العائدة لتعشش في قلبي..

لن تري غيري أصارع الطواحين التي لا تلقم الخبز للجائعين..

أتتبع النمل في شقوق الجدران لأفهم كيف تحتمل العيش في الزحام..

لأسألها أين أجد قومًا يدركون بوحي البصيرة أنني مثلهم "مجرد إنسان"..

وأنني مثلهم أنفقت عمري في السقوط والوقوف..

وشهدت زحف آخر جحافلهم التي أتت لطعن خاصرتي..

قارئة الكف اعتقيني وشواطئي من عبودية هذياني..

هذياني المستلقي على نحري كقلادة إغريقية عتيقة..

اعتقيني من ضجيج برأسي لا ينام ولا يدع عيني تنام..

- 74 -

تنحّوا عمن يستعبدونكم.. يكفرونكم.. يفقدونكم صوابكم باسم الدين..

لم يشهدوا بعث آخر الأنبياء..

لم يصلوا خلف النبي محمد صلاةً واحدة..

مالكم لا تفقهون؟ لم يكن محمدا سبابا ولا فحّاشا ولا لعّانا..

فكيف يدعون أن بين ألسنتهم وأفعالهم النتنة صكوك الجنات أو النيران؟!

- 75 -

هل تفكرون مثلي أن الأموات الآن في نعيمهم يشفقون على حالنا بالدنيا ويدعون ربهم لو أننا نلحق بهم ونستريح من هذا العناء؟ لماذا نتمنى لو أنهم بقوا بينما هم التقوا أخيرا ربهم وملائكته وفردوسه المنشود؟ هنيئا لمن صاروا إلى جوار الكريم الرحيم!

- 76 -

ممددة على ظهر غمامة سائرة بك إلى وجهة رمادية لا أجدك فيها..

أبحث عنك في ثرثرة النوارس..

في همهمات المزن حين تختلس النظر إلى الأسفل وتستنكر المسافة الطويلة التي ستنسكب عبرها مياهها..

أبحث عنك في غناء القمر وعزف النجوم..

في حقول الياسمين على خد السماء المفعم بالزرقة الناصعة..

أبحث عنك دون جدوى فأنت فقدت آخر مفتاح يبلغني إياك..

وأضعت لائحة عناويني عمدا حتى أتيه في الأرض والسماء..

أحاول استنطاق أصابعك التي لطالما عرفت طريقها إلى شفتي..

أحاول استدراج عينيك إلى موعدٍ أخير مع المرافئ والموانئ والتخوم..

أحاول عبثا أن أزرعك في الهواء لأحصدك في مرج قلبي بعد مائة عام..

أحاول إجباري على نسيانك..

لكن المنفى أصبح سكة وهم.. وأنا لا زلت ممتلئة بك!

- 77 -

وانتظرتك على رصيف لم يسبق أن أتيت إليه من قبل..

لماذا أتوقع أن أراك مع يقيني أنك لن تأتي؟

بقيت ألف عام بتقويم ذاكرتي أنتظرك..

يستعطفني الشحاذون ويتسولون ما قد أنفقته كله فيك..

فلا يرون في عيني سوى صورة أخيرة لك تتهشم..

وينسحبون يجرون أذيال الشفقة..

إنني أملك ما لا يمكن أن تشتريه بمالك..

ولن تجده في حقيبة امرأة أخرى..

فلن تجد من يحبك بعنف الحب الذي معي عشته..

هذه المرة سأكون في انتظاري أنا..

على ذات الرصيف سألتقي نفسي..

سأحبها كما لم يحب أحدٌ أحدا.. لا من قبل ولا من بعد!

- 78 -

كنت أقاتل لأجلك طوال الوقت..

قاتلت حتى نفسي..

لن يرى العالم هذا كما لن تراه أنت..

الله وحده فقط يعلم حجم الحرب التي خضتها لتحيا أنت بسلام!

ووحده يعلم أني انتصرت!

- 79 -

لا تنطفئ مهما مررت بأوقات عصيبة..

لا ترتم على صدر أي عابر بدعوى الوحدة القاتلة..

لا تفرط في حزنك لأنك تسعدهم بينما لا يحاولون فعل الشيء ذاته لأجلك..

لا تبتلع سُم ذكراهم لتداوي قلبك المفطور بعد حذف محادثة طويلة جاهدت طويلا كي لا تُحذف..

لا تفلت يد الذي أحبّك برغم كل حطام روحه الذي يحاول عبثا مواراته..

لا تسمح لأحد بالاستمرار في إيلامك بحجة أنك تملك من القوة ما يكفيك للصمود..

لا تطلب إذنا للرحيل ممن يسرق حبهم منك نومك وتوهج عينيك وهناء قلبك..

لا تمنح وعدا وأنت أسير ضعفك فتنكث العهد بعد استرداد قوتك..

لا تحاول إنقاذ من يرى في غرقك نجاةً له..

لا تخش من أن تحب أخطاءك فأخطاؤك صنعتك قبل أن تصنعها..

لا تتجاهل نزيف روحك ولا تلجم صرخاتك المخنوقة..

كن لنفسك الدعامة التي لا تحيد ولا تميل..

- 80 -

إليك سمراء.. بيضاء.. صفراء.. إليك هزيلة.. ممتلئة.. إليك طويلة.. قصيرة..

تتعرضين لغزو ممنهج يكرس فيك صورة نمطية لقالب جسدي أنثوي محدد القسمات والتفاصيل.. يحاصرونك بالمسطرة لتعقدي مقارنات مع كل نساء الأرض وتجدين نفسك بعدها أقل حظا.. أكثر نقما على تاريخك الجيني ورصيدك البنكي ومناخ بلادك.. لتواصلي تدحرجك نحو القاع دون سيطرة مثل كرة ثلج عملاقة.. تقفين أمام مرآتك تفتشين في تضاريس جسدك عن كل شيء يجعل إحساسك بالرضى يتقزم.. تتساءلين كيف سأبدو لو كنت أطول؟ لو كان وجهي خاليا من البثور؟ لو أنني أودع كومة الشحم هذه وداعا أبديا؟ وتقفز في ذهنك تلك الشرارة المجنونة: كانوا ليحبونك أكثر!

مع الوقت يجرك هذا الشعور ببلاهة نحو هوس أعمق.. يرميك بالسحر من يصرح لك كم أنت جميلة! شيئا فشيئا ينقص منسوب ثقتك بنفسك وتصبح تعليقات المحيطين إما بلسما أو علقما يتبدّل معها مزاج يومك جُله..

وفي الطريق إلى النهاية تكتشفين أنك لم تحبي نفسك بما فيه الكفاية.. وأن الأوقات التي أنفقتها في تتبع كل خصالك التي لم تنل إعجابك كانت أثمن من كل آرائهم المُرة الحلوة.. وأن الأوان لن يمهلك لتحضني كل إنش في جسدك وروحك وتقبليها بشراهة وتخبريها أن حبك لنفسك كان ليجلب لك كل حب العالم دون عناء!

الذين يحبون أنفسهم حقا نوافذهم مشرعة للنور والحب ومن يحبك حقا سيعشق كل تفاصيلك حتى تلك التي تنعتينها بالقبيحة!

أيتها الجميلة.. أنت جميلة كما أنت!

- 81 -

لا تبرر حجج غيابك للذين يشبه غيابك عنهم الحضور..

للذين لا يهمهم متى ابتسموا لأجلك آخر مرة..

ومتى سهرت حد الدوخة لبثهم لواعج اشتياقك..

للذين لم يفكروا يوما كيف سيمكنهم احتمال العالم دون عينيك..

من لا يأبهون حقا إلى أي سماء تصعّدت حشرجة صدرك؟

وفي أي تربة عقيم وأدت دمعاتك؟

الذين يبدلون جلودهم في كل مرة يقامرونك فيها باسم الحب والاهتمام.

الذين لا يشبهون نسخهم التي وقعت في غرامها أول مرة..

لا تمنحهم حتى حجة غياب واحدة!

- 82 -

نحبك يا إلهنا.. تائهون بدونك.. عاجزون بدون حولك وقوتك.. مغيّبون حين نضل السبيل إليك.. تفترسنا تصوراتنا عما نحن عليه وما علينا أن نكونه.. خائفون من سخطك ونحن الغرقى في لُجّة محيطٍ من ذنوب.. يتملكنا اليأس بأننا لن ننجو ثم رويدا رويدا يتدلى حبل الرجاء من سمائك إلى قعر أرواحنا أن رحمتك وسعت كل شيء.. يا إلهنا امنحنا خلودا يليق بعظمتك لا بضآلتنا.. آنس وحشتنا على الأرض وتحتها ويوم العرض..

- 83 -

ها أنا ذا أتدرج في سرد مأساتي..
لألتقط الحروف التي تسقط عني باسم انتفاضتكم..
هناك على الربوة البيضاء قدسٌ لا تثير شهيتكم..
وسواري الأقصى ترتدي نقابا من ذهب..
فتشدقوا أمامها من وراء خمار بعروبتكم..
فقد ضاعت مروءتكم بعد عهد أمير المؤمنين..
صلبتموها في رمضائكم على جذوع النخل..
وقسّمتم أشلاءها على كل جبلٍ ومضيق..
ثم تباهى زعيمكم: ادعونها يأتينكم سعيا..
لن تأتي يا شيخهم المزعوم..
لن تأتي لأن كراسيكم عرش إبليس الرجيم..
ثم يخلق الله من أصلابكم من لا يسلك درب غوايتكم..
من يرى في فك قيود القدس نصرة لأحرار العالمين..
أيها الثوار.. ليس في المعصم قيدٌ..
إنما سجوننا في صدورنا..
فاقتلعوا منها خنوعنا بحق انتفاضتكم!

- 84 -

انطفأ آخر ضوء..

تعثر فسقط قلبه في القبو المستباح بالظلمة..

خرج إلى الشارع يلتمسه في النور..

عبر الجيران والأصحاب وانهمكوا معه باحثين..

بعد حينٍ تثاءب عجوز: أين أسقطت قلبك تحديدا يا جارنا العزيز؟

مد ذراعه بخدرٍ ثقيل وأصابع مهزوزة: هناك!

حدّقوا مليا ناحية كوخه بعيونٍ تلتهمها الدهشة:

*إذًا لم تبحث هنا؟

- أيها النجباء لا يمكنكم البحث في العتمة.. عليكم أن تتبعوا الضياء!

مثله نحن يا جيرانه وأصحابه..

نترك داخلنا حطامنا وضياعنا ومشاكلنا هائجةً كمحيطٍ مزمجر..

نراقبنا ونحن نغرق في الفوضى وملء جوارحنا استسلام وإذعان..

ثم نخرج نبحث عن هدوءٍ.. عن رفقةٍ.. عن خد سماءٍ لا يسأم تلقي صفعاتنا..

ولا نجد قلوبنا التي سقطت.. ولا نجد أحبابنا.. ولا الحلول لمصائبنا..

نجد فقط المزيد من الفوضى.. الفوضى وحدها تأكلنا بنهمٍ شديد!

- 85 -

تبت الأيدي التي تمتد لتؤذينا لا لتمنع الأذى..

والألسنة التي تلوك لحومنا وراء ظهورنا..

والأقدام التي تهرول لنصب الأفخاخ والألغام في دروبنا..

تبت تلك الأنفس المريضة التي بغير وجه حق تلطخ أسماءنا..

تبا لهم أشباه فرعون الذي ذبح الآلاف ثم عربد في وجه موسى:

إنك من الكافرين!

بضاعتكم أيها الحاقدون رُدّت إليكم..

فاشربوا من كأس غيظكم وموتوا بقهركم..

ولا أحسن الله فيكم عزاء حتى قيام الساعة..

سنقتص أمام الديان من أفعالكم وكلماتكم..

فلتسألوا الله الغفران قبل موعدنا هذا.. فلتسألوا!

- 86 -

ما هي أثمن العطايا؟ ما أكثر أمر أنت مستعد أن تموت لأجله؟ ويكأنها تتدافع الآن فوق رأسك آلاف الإجابات دون انتظام..

لكنك لن تجد أثمن وأهم من الحرية يا صديق!

إنها الهبة الإلهية التي تفضل معها الموت وقوفا عوضا عن الحياة ركوعا عند قدمي أحدهم..

لا شيء يشعل تمسكك بها مثل وقوعك في أسر استبداد واستغلال لحقك هذا..

أن تكون حرا لا تعني أن تبقى خارج أسوار السجن بل أن تقود حياتك وأفكارك بإرادة حرة.. ألا تسمح لأيٍ كان بجعلك دمية يحركها ويوجهها كيف يشاء!

لا قيمة لأي شيء تملكه إذا لم تكن حرا.. إنها كالهواء يا صديقي لا تشتريه ولا تبيعه!

- 87 -

أيها المطر المنحبس في رحم الغمام اهطل..

اصطحب في طريقك دعواتنا التي استجاب لها الله..

طهر فضاءنا من زفراتنا اليائسة وصراخنا المتخم بالذبول..

حررنا من فقاعة الوهم التي نتكئ على جدارها الهش..

أرنا مهرجانا سماويا بألوان قوس المطر الضاجّة بالحياة..

أخبر أرواحنا الراقصة مع قطراتك ألّا شيء يمكنه انتزاع هذه السعادة الصغيرة..

اغمرنا بالفضول لنتخيل أجنحة أرواحنا مبللة بك حد التحليق السرمدي..

حاول أن تقرأنا.. أن تكتشف أن سقوطك إلينا هو ارتفاع منا إليك..

ضمّنا.. نحن المتعبون من كل شيء..

ضمّنا نحن الواهنون في عناق لا نود منه فكاكا أبدا..

يا ماء السماء.. يا غيث المغيث..

- 88 -

خائفٌ أنت مثلي من النهاية..

من اللحظة التي تُزال فيها سائر الحُجُب زوالا أبديا..

فتسمع ما كان يستعصي على سمعك..

وترى ما كان يستحيل على بصرك..

وتحس وكأنك لم تحس بشيء في حياتك الأولى..

خائفٌ مثلي من أسئلةٍ لا نهتدي لإجابتها..

من لقاءٍ مهيب لا نعد له..

من فضائل خجولة لا تسعفنا لننجو..

ثم تتذكر مثلي ألا أمان أعظم من الأمان بمعية الله..

ألا رحمة تقترب من رحمته بنا..

ألا حب يتجاوز حبه لنا..

ألا شوق يعدل الشوق للقائه..

فمرحبا بنهايةٍ تأخذنا إليه..

- 89 -

دقت الساعة منتصف الليل..

حان أوان حضورك الرتيب..

آتٍ من العدم تقتحم خلوتي دون إخطارٍ مُسبق..

آتٍ لتثير الزوابع في صومعتي التي سئمت رائحة قدومك..

تتسلل من لوحتي الجدارية أو من رماد صورتك الأخيرة..

تعم الفوضى وتصاب جدران غرفتي بالصداع..

تفتش عن منفذٍ يأخذك إلى قلبي مُوصّد الأبواب في وجهك..

إلى أين أهرب من شغبك؟

إلى البحر؟!

رأيته يتثاءب مللًا من ثرثرتي هذه..

يرمقني شزرا: لست وحدك الموبوء بالخذلان انظر حولك!

حولك من لم يبق في كيانهم موضعٍ لطعنةٍ واحدة إضافية..

حولك الذين يحاولون بشق الأنفس استئصال مذاق آخر قُبلة من ذاكرتهم..

حولك ذوو العاهات العاطفية المستديمة..

من لا يملكون أملا ضعيفا للتعافي..

سأدعو كل أشيائي التي شهدت بعثك طوال تلك الليالي..

سندفعك إلى المحرقة بشهيةٍ تتوق لمحوك من خارطة وجودها..

الوداع يا أنت.. هذه زيارتك الأخيرة!

- 90 -

كل رفات الأبطال لا يعيد مدننا المغتصبة..

السيف الصدئ الذي لم يفارق غمده منذ بضعة عقود..

لن تستله أمجادنا الغابرة لأجل استعادة عزتنا المهدورة..

أضرحة بغداد والأندلس والفسطاط لا تحس منكم أو تسمع لكم ركزا..

أيها المتتبعون مشكاة محمد:

ستجدون الله في قرآنه..

فاعتصموا بحبله المتين..

واصنعوا للأمة الثكلى نصرا من سواعدكم..

اخلعوا عنكم جلابيب تاريخها الأسود..

وسطروا آي الخلود للملايين التي تترقب صحوتكم..

يا أفواج المنتصرين!

للاطلاع على قائمة إصداراتنا:

بيت الغشام للصحافة والنشر والإعلان

@bait.alghsham